

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٧ - سُورَةُ الصِّفَاتِ

سميت بها لاشتمال الآية التي هي فيها على صفات للملائكة تنفي إلهية الملائكة من الجهات الموهمة لها فيهم . فينتفي بذلك إلهية مادونهم ، فيدل على توحيد الله ، وهو من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهابي .

وهي مكية اتفاقا ، وآيها مائة واثنان وثمانون . روى النسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ، ويؤمنا بالصفات . قال ابن كثير : تفرّد به النسائي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)

[٢] (فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا)

[٣] (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

[٤] (إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ)

« وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ »

افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته ، إظهاراً لعظم شأنها وكبر فوائدها . وتبنيها إلى الاعتبار بصفتها وما تستدعيه من سِمَتها . و (الصافات) جمع صافة ، أى طائفة صافة ، أو جماعة صافة . فيكون فى المعنى جمع الجمع . أو على تأنيث مفرده باعتبار أنه ذات ونفس ، والمراد بالصافات الملائكة . لقيامها مصطفة فى مقام العبودية لملك الملك . من قوله تعالى (١) (وَإِنَّا لَنَدْبِحُنَّ الصَّافُونَ) أو لصفها أجنحتها فى الهواء واقفة منتظرة لأمر الله تعالى . و (الزاجرات) أى : الناس عن المعاصى ، بإلهام الخير . من (الزجر) بمعنى المنع والنهى . أو الزاجرات الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به . من (الزجر) بمعنى السوق والحث . و (التاليات) أى : آياته تعالى على أنبيائه عليهم السلام ، وقيل : الصافات الطير . من قوله تعالى (٢) (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٌ) و (الزاجرات) ، كل ما زجر عن معاصى الله . و (التاليات) كل من تلا كتاب الله . أو هم العلماء الصافون فى العبادات أقدامهم ، الزاجرون عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح ، التالون آيات الله وشرائعه . أو هم الغزاة الصافون فى الجهاد ، والزاجرون الخليل أو العدو ، التالون لذكر الله ، لا يشغلهم فيها عنه مبارزة العدو . وقد ذكر

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٥] . (٢) [٢٤ / النور / ٤١] .

غير هذا ، مما يشمله اللفظ ولا يأباه . وبالجملة ، فالعطف إما لاختلاف الذوات أو الصفات . وإيثارُ الفاء على (الواو) لقصد الترتيب والتفاضل طرداً أو عكسا . أما الأول فاعتناء بالأهم فالأهم . وأما الثاني فالترقي إلى الأعلى . و (صفا) و (زجرا) مصدر مؤكد . وكذا (ذكرا) ويجوز فيه كونه مفعولاً به . قال الناصر : وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيويه والتحليل في مثل^(١) (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) فإنهما يقولان : الواو الثانية وما بعدها عواطف . وغيرها يذهب إلى أنها حروف قسم . ففوق الفاء في هذه الآية موقع الواو . والمعنى واحد . إلا أن ما تزیده الفاء من ترتيبها ، دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق ، للعطف لا للقسم . انتهى .

وقوله تعالى (إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ) جواب للقسم . وفي تأكيد المقسم عليه بتقديم الإقسام وتوكيد الجملة ، اهتمام به بتحقيق الحق فيه الذي هو التوحيد ، وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به ، وهو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ)

« رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ » فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع ، من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته ، وأعدل شواهد وحدته . أى مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ومربّيها ومبلغها إلى كمالاتها . والمراد بالمشارق مشارق الشمس . وإعادة ذكر الرب فيها ، لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجدها كل يوم . فإنها ثلاث مائة وستون مشرقاً . تشرق كل يوم من مشرق منها . وبحسبها تختلف المغارب ، وتغرب كل يوم في مغرب منها . وأما قوله تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباها . أفاده أبو السعود .

(١) [٩٢ / الليل / ٢٥١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّا زَيْنًا أَلْمَسَاءَ أَلْدُنْيَا أَزَيْنَةَ أَلْكَوَا كِبِ)

« إِنَّا زَيْنًا أَلْسَمَاءَ أَلْدُنْيَا » أى الجهة العليا القربى من كرة الأرض « أَزَيْنَةَ » أى عجيبة بديعة « أَلْكَوَا كِبِ » بالجر، بدل من (زينة). وقرئ بالإضافة، على أنها بيمانية، أو على معنى ما زينت هى به، وهو ضوءها. والمراد التزيين فى رأى العين. فإن الكواكب تبدو للناظرين كأنها جواهر متألثة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ)

« وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ » أى خارج عن الطاعة، بقذفه بشمبها، كما يتناول إلى استراق السمع من جهتها و (حفظاً) إما منصوب بإضمار فعله . أى حفظناها حفظاً . أو بعطفه على (زينة) من حيث المعنى . أى خلقنا الكواكب للسماء زينة وحفظاً . أو على المفعول لأجله لزيادة الواو . والمامل فيه (زينة) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ أَعْلَىٰ وَيُقَذِفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ)

« لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ أَعْلَىٰ » قرئ بالتخفيف والتشديد. وأصله (يتسمعون) أى يتطلبون السماع . والضمير لكل شيطان . لأنه فى معنى الشياطين ، والجملة مستأنفة لبيان ما عليه حال المسترققة للسمع من أنهم لا يقدر أن يسمعوا إلى كلام الملائكة الخ . أو هى علة للحفظ . أى لئلا يسمعوا . فحذفت اللام ثم (أَنَّ) وأهدر عملها . وضعفوه بلزوم اجتماع حذفين، وهو منسكرو. كما ذكره فى قوله تعالى^(١) (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَصَلُّوا) أى لئلا

(١) [٤ / النساء / ١٧٦] .

تضلوا ، وقد يقال : إنما ينكر حذف شيئين فيما يخلّ بانسجام الكلام . أما في تقدير أمرٍ له نظائر ، ومرجه إلى تحليل معنى ، لا ياباه اللفظ - فلا وجه للتعصب في رده ، لمجرد أن الكوفيين ، مثلاً ، ذهبوا إليه أو غيرهم . وشاهد المعنى أعدل من حكم القواعد وتحكيمها « وَيُقَدِّفُونَ » أى يرمون « مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » أى من جميع جوانب السماء ، إذا قصدوا الصعود إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)

« دُحُورًا » أى للدحور وهو الطرد « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » أى شديد غير منقطع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ)

« إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ » أى اختلس الكلمة « فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ » أى لحقه شملة نارية تنقض من السماء « ثَاقِبٌ » أى مضى . كأنه يثقب الجو بضوئه .

تنبیه :

ذكر المفسرون أن الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء . فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهونهم أنهم يعلمون الغيب . فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب . فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم . قال ابن كثير : يعنى إذا أراد الشيطان أن يسترق السمع ، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه . ولهذا قال جل جلاله (لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى) أى : لتلا يصلوا إلى الملا الأعلى ، وهى السموات ومن فيها من الملائكة ، إذا تكلموا بما يوحىه الله تعالى بما يقوله من شرعه وقدره .

كأوردت الأخبار بذلك في تفسير قوله تعالى^(١) (حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) انتهى .

قال بعض علماء الفلك : كما أن العرش تحفه الأرواح الغيبية - حسبما تقدم بيانه في آية^(٢) (ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) في الأعراف - فكذلك الكواكب الأخرى مسكونة مع الحيوانات والدواب بأرواح، منها الصالح (الملك) ومنها الطالح (الشیطان) وكذلك أرضنا هذه. ففيها من الملائكة ومن الشياطين ما لا نبصره.^(٣) (إِنَّهُ وَيَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) ولا يخفى أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. فعدم إدراكنا هذه الأرواح لا يدل على عدم وجودها . كما أن عدم معرفة القدماء للميكروبات وللسكرباء التي تشاهد الآن آثارها العظيمة ، لم يكن يدل على عدم وجودها إذ ذاك في العالم . فمن الجهل الفاضح إنكار الشيء لعدم معرفته أو العثور عليه . على أن لنا الآن من مسألة استحضر الأرواح أكبر دليل على وجود أرواح في هذه الأرض، لا نبصرها ولا نشعر بها . وقد قدر الله تعالى أن الحيوانات في هذه الأرض ، إذا خرجت عنها إلى حيث ينقطع الهواء ويبطل التنفس ، تموت في الحال . وكذلك قدر أن الأرواح الطالحة التي في أرضنا هذه، إذا أرادت الصعود إلى السماء والاختلاط بالأرواح التي في الكواكب الأخرى، انقضت عليها، قبل أن تخرج من جو الأرض، شهاب من هذه الكواكب أو من غيرها ، فأحرقها وأهلكها ، بإفساد تركيبها ومادتها . حتى لا يحصل اتصال بين هذه وتلك ، ولا تطلع على أسرار العوالم الأخرى . وهذه الشهب التي تنقض ، إن كانت صادرة من أجرام ملتهبة ، كانت ملتهبة . وإن كانت صادرة من أجرام غير ملتهبة ، التهب فيما بعد لشدة مرعتها واحتكاكها بالغازات التي تمر فيها في جوتها هذا . ولعل في مادة الشياطين ما يجتذب إليه هذه الشهب ويتحد بها . كما تجتذب العناصر السكبائية

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٧] .

بعضها بعضاً (مثال ذلك عنصر الصوديوم فإنه يجتذب إليه الأكسجين من الماء فيحمله) ولا نقول إن جميع الشهب تنقض لهذا السبب، بل منها ما ينقض لأسباب أخرى . كاجتذاب بعض الأجرام السماوية له . ومنها ما ينقض لإهلاك الشياطين، كما بينا هنا . والشياطين مخلوقة من مواد غازية كانت ملتهبة^(١) (وَأَلْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) والمراد (بالسماء الدنيا) في هذه الآية الفضاء المحيط بنا القريب منا . أى هذا الجو الذى نشاهده وفيه العوالم كلها . أما ما وراءه من الجواء البعيدة عنا ، التى لا يمكن أن نصل إليها بأعيننا ولا بمناظيرنا ، فهو فضاء محض لا شئ فيه . فلفظ (السماء) له معان كثيرة كلها ترجع إلى معنى السمو . وتفسرُ في كل مقام بحسبه .

ثم قال : فكل مسألة جاء بها القرآن حق ، لا يوجد في العلم الطبيعي ما يكذبها . لأنه وحى الله حقا ، والحق لا يناقضه الحق^(٢) (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) اه . وقال أيضا : يعتقد الآن علماء الفلك أن أكثر الشهب تنشأ من ذوات الأذئاب . ويحتمل أن بعضها ناشئ من بعض الشمس المنحلّة ، أو الباقية الملتهبة ، أو من براكين بعض السيارات ، أو مما لم ينطق من السيارات للآن . ومتى علمنا أن ذوات الأذئاب والسيارات جميعا مشتقة من الشمس ، كان مصدر جميع الشهب هو الشمس أو النجوم . (قال) : وهذا يفهمنا معنى هذه الآية . اه كلامه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى^(٣) (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) وقوله عز وجل^(٤) (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَلْسَمَعَ

(١) [١٥ / الحجر / ٢٧] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٣] .

(٣) [٦٧ / الملك / ٥] . (٤) [١٥ / الحجر / ١٦-١٨] .

فَاتَّبَعُوهُ وَشِهَابٌ مُّبِينٌ) وقوله سبحانه إخبارا عن الجن^(١) (وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا نُهَاً مُلِئَتْ حَرًّا شَدِيدًا وَشُهَابًا* وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقَعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ وَشِهَابًا رَصَدًا) .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١١] (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا ، إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)
 « فَاسْتَفْتَيْهِمْ » أى فاستخبر مشركى مكة « أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا » أى أقوى خلقه وأمتن بنية « أَمْ مَنِ خَلَقْنَا » أى من السموات والأرض والجبال . كقوله تعالى^(٢) (ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ) الآية وقوله^(٣) (لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) وفى اضطرارهم إلى الجواب بصغر خلقهم وتساؤله عما ذكر ، اعتراف بأنه لا يتعالى عليه أمر بعد هذا . كشأن البعث وغيره . وإليه الإشارة بقوله تعالى « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ » أى لزج ضعيف لا قوة فيه .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٢] (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

« بَلْ عَجِبْتَ » أى من إنكارهم للبعث بعد اضطرارهم للاعتراف بما يحققه « وَيَسْخَرُونَ » أى من تقرير أمر البعث والاحتجاج عليه .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٣] (وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

« وَإِذَا ذُكِّرُوا » أى بما يؤيده ، أو وعظوا وخوفوا من المخالفة « لَا يَذْكُرُونَ » أى ما يقتضيه ؟ لتمنهم وعنادهم . أولايخافون ولا يتعظون .

(١) [٧٢ / الجن / ٩٠٨] . (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٧] . (٣) [٤٠ / غافر / ٥٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْا آيَةً » أى برهاناً واحتجاجاً على مصداقه، من آيات الكائنات فى أنفسهم أو فى الآفاق « يَسْتَسْخِرُونَ » أى يبالغون فى السخرية، بدل الاعتبار والتدبر والتفكير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

« وَقَالُوا إِن هَذَا » أى ادعاء ما ذكر ، والاستدلال عليه والصدع بشأنه ، والقراع فيه « إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَعْذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ)

[١٧] (أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوْلُونَ)

[١٨] (قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ)

« أَعْذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوْلُونَ * قُلْ » أى تبكىتاً لهم . « نَعَمْ » أى تبعثون « وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ » أى ذليلون ، لاجدل منكم يدفعه ولا قدرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ)

« فَإِنَّمَا هِيَ » أى البعثة « زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » أى صيحة واحدة « فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ » أى قيام من مراقدهم أحياء ، أولو قوة مداركة ، بها يبصرون . أو ينتظرون ما يفعل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)

« وَقَالُوا : يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ » أى الجزاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ)

[٢٢] (أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ)

« هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ * أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى

أنفسهم بالكفر والمعاصي والسعي بالفساد « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى وأشباههم من الفجرة .

أو نساءهم الكافرات « وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)

« مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من الأصنام وغيرها ، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم « فَأَهْدُوهُمْ

إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » أى فعرّفوهم طريقها ليسلكوها . والتعبير به (الهداية) و (الصراط)

للتهمك بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَفَقُّوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

« وَفَقُّوهُمْ » أى احبسوهم في الموقف « إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » أى عن عقائدهم وأعمالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

« مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ » أى لا يفصر بعضكم بعضاً ، وقد كان شأنكم التعاضد فى الحياة الأولى . وهو توبيخ لهم وتقريع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)

« بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ » أى منقادون ومخدولون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

[٢٨] (قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ)

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ »

أى عن القهر والغلبة . أى كنتم تضطروننا إلى ما تدعوننا إليه . كما فى آية (١) (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ وَآندَادًا) وقيل عن الحلف والقسم . وقيل عن جهة الخير وناحية الحق . من اليمين) ضد الشؤم . أى توهمونا وتخدعوننا أن ما أنتم عليه أمر ميمون فيه الخير والفوز . فأين مصداقه وقد نزل ما نزل ؟

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

[٣٠] (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ)

[٣١] (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ، إِنَّآ لَذَٰبِقُونَ)

[٣٢] (فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)

[٣٣] (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

[٣٤] (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

[٣٥] (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

« قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الاستجابة للداعى إليها.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَيَقُولُونَ آيِنَّا لَتَارِكُوآءِ الْهَيْتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ)

« وَيَقُولُونَ آيِنَّا لَتَارِكُوآءِ الْهَيْتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ » أى لقول من يقول بالمقدمات

الخيالية عن الجنون . فرد عليهم بأنه لم يأت بكلام مخيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ)

« بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ » أى الذين هم أعدل الأمم وأحكم الحكماء .

فتى يتفقون على قول مصدره الجنون ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ)

[٣٩] (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ)

[٤١] (أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ)

[٤٢] (فَوَاكِهَ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

[٤٣] (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[٤٤] (عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

« إِنَّكُمْ » أى بافرائكم « لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهَ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » أى فى الصف مترائين ، لا يحجب بعضهم عن بعض ، ولا يتفاضلون فى المقاعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

« يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى شراب معين ، جارٍ كالنهر لا ينقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

[٤٧] (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)

« بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ » أى ما يفتال العقل ، ولا فساد من فساد خمر الدنيا « وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » أى تذهب عقولهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعِنْدَهُمْ قَصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ)

[٤٩] (كَأَنَّهنَّ بَيضٌ مَّكْنُونٌ)

« وَعِنْدَهُمْ قَصِرَاتُ الطَّرْفِ » أى على أزواجهن أو مبيضاته تشبيها بالشوب المقصور، وهو المحوّر . « عَيْنٌ » أى كبار الأعين « كَأَنَّهنَّ بَيضٌ مَّكْنُونٌ » أى بيض نعام فى الصفاء ، مستور لم يركب عليه غبار .

قال الشهاب : وهذا على عادة العرب فى تشبيه النساء بها . وخصت ببيض النعام ، لصفائه وكونه أحسن منظراً من سائرّه . ولأنها تبيض فى الفلاة وتبعد ببيضها عن أن يمس . ولذا قالت العرب للنساء (بيضات الخدور) ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لعان ، كما فى الدر . وهو لون محمود جدا . إذ البياض الصرف غير محمود . وإنما يحمد إذا شابه قليل حمرة فى الرجال ، وصفرة فى النساء . انتهى .

وحكى ابن جرير عن ابن عباس ؛ أنه عنى بالبيض المكنون (اللؤلؤ) .

ثم قال : والعرب تقول لكل مصون (مكنون) لؤلؤا كان أو غيره . كما قال أبو دهب^(١) :

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغواصِ ميزت من جوهر مكنونِ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

طال ليلى وبت كالحزونِ ومليت الثواءِ فى جِبرونِ

جبرون : حصن فى دمشق ، وقيل : هى دمشق نفسها .

قالها فى عاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان .

انظر الصفحة رقم ١٢٢ من الجزء السابع من الأغاني (طبعة دار الكتب) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

« فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » معطوف على (يطاف) والمعنى ، يشربون فيتحادثون على الشراب ، كمادة أهل الشرب ، عما جرى لهم وعليهم .

وقال القاشاني : أى يتحادثون أحاديث أهل الجنة والنار ، ومذاكرة أحوال السعداء والأشقياء ، مطلعين على كلا الفريقين وما هم فيه من الثواب والعقاب ، كما ذكر في وصف أهل الأعراف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

[٥٢] (يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ)

[٥٣] (أَأَذًا مِّتْنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَدِينُونَ)

« قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ » أى في المحادثة « إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ » أى جلس في الدنيا « يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَأَذًا مِّتْنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَدِينُونَ » أى لمبعوثون فجزيون . أى يقول ذلك على وجه التمجيد والتكذيب . والمعنى : فهنا قد صدقنا ربنا وعده ، وأحل بالقرين وعيده ، كما أشار له بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ)

« قَالَ » أى ذلك القائل « هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ » أى إلى أهل النار من كوى الجنة ومطالها ، لأريكم ذلك القرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَأُطْلَعُ فَرَّاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

[٥٦] (قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لِتُردِينَ)

[٥٧] (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

« فَأُطْلَعُ فَرَّاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ » أى وسطه « قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لِتُردِينَ »

أى لتهلكنى بالإغواء « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي » أى بالهداية والطف بى « لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ » أى معك فى النار . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أَفَمَا نَحْنُ بِمَعْتَبِينَ)

[٥٩] (إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ)

« أَفَمَا نَحْنُ بِمَعْتَبِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ » من نعمة كلامه

لقربنه ، تقريباً له . أو مماودة إلى محادثة جلسائه ، تحديقاً بنعمة الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[٦١] (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

« إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » أى لنيل مثله ،

فليجد المجدون .

ولما وصف ملاذ أهل الجنة ، تأثره بمطاعم أهل النار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ)

« أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ » وهي شجرة كريهة المنظر والطعم ، كما ستذكر صفها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)

[٦٤] (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)

[٦٥] (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ)

« إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً » أى محنة وعذابا « لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا » أى حملها « كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » أى مثل ما يتخيل وبتوهم من قبح رؤوس الشياطين . فهى قبيحة الأصل والثمر والمنظر والملمس . قال الزمخشري : وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر . لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخاطه خير . فيقولون فى القبيح الصورة (كأنه وجه شيطان) (كأنه رأس شيطان) وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله . كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خير محض لا شر فيه . فشبّهوا به الصورة الحسنة . قال الله تعالى ^(١) (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) وهذا تشبيه تخيلى . انتهى . أى لأمر مركزوز فى الخيال . وبه يندفع ما يقال إنه تشبيه بما لا يعرف ، وذلك لأنه لا يشترط أن يكون معروفا فى الخارج . بل يكفى كونه مركزوزا فى الذهن والخيال ،

(١) [١٢ / يوسف / ٣١] .

الأتري امرأ القيس^(٣) - وهو ملك الشعراء - يقول :

* ومسنونة زرق كَأنيابِ أغوال *

وهو لم ير الغول : والغول نوع من الشياطين ، لأنه في خيال كل أحد مرسم بصورة قبيحة ، وإن كان قابلاً للتشكل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَأَنَّهُمْ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَيْسَ مِنْهَا الْبُطُونُ)

« فَأَنَّهُمْ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا » أى من طلعتها « فَمَا لَيْسَ مِنْهَا الْبُطُونُ » أى لغلبة الجوع أو الإكراه على أكلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ)

« ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ » أى لشراباً كالصديد أو العساق ، ممزوجاً من ماء متناه في الحرارة ، يقطع أمعاءهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِآلِي الْجَحِيمِ)

« ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ » أى مصيرهم « لِآلِي الْجَحِيمِ » أى إلى دركاتهما . أو إلى نفسهما

(١) البيت :

أيقنتني والمشرقُ مُضْأَجِي ومسنونة زرق كَأنيابِ أغوال !
من قصيدته التي مطلعها :

ألا عيمُ صباحاً أيها الطللُ البالي وهل يعمنُ من كان في العُصْرُ الخالي
انظر الصفحة رقم ٢٧ من الديوان (طبعة دار المعارف) .

لامفر لهم منها ولا يحيص كيفها تحولوا . قال ابن كثير : أى ثم إن مردّم بمد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وسمير تتوهج . فتارة فى هذا وتارة فى هذا . كما قال تعالى (١) (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَأَن) هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية . وهو تفسير حسن قوى . انتهى .

ومن لطائف الإشارات فى هذه الآية، مقاله القاشانى . وعبارته : (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) وهى شجرة النفس الخبيثة المحجوبة النابتة فى قعر جهنم الطبيعة المتشعبة أغصانها فى دركاتها القبيحة الهائلة عمراتها من الرذائل والخبائث كأنها من غاية القبح والتشوه والخبث بالتفرد (رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) أى تنشأ منها الدواعى المهلكة والنوازع المردية الباعثة على الأفعال القبيحة والأعمال السيئة . فتلك أصول الشيطنة ومبادئ الشر والفسدة، فكانت رؤوس الشياطين (فَأِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا) يستمدون منها ويغتذون ويتقوون . فإن الأشرار غذاؤهم من الشرور ولا يلتذون إلا بها (فَمَآ لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) بالهيئات الفاسقة والصفات المظلمة، كالمتلى ، غضبا وحقدا وحسدا وقت هيجانها (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا شَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) الأهواء الطبيعية والمُنَى السيئة الرديئة ، ومحبات الأمور السفلية، وقصور الشرور الموبقة ، التى تكسر بعض غلة الأشرار (ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِآلِي الْجَحِيمِ) لقلبة الحرص والشره، بالشهوة والحقد والبغض والطمع وأمثالها . واستيلاء دواعيها مع امتناع حصول مباحيها . انتهى .

وهذه الإشارات من المجازات التى تتسع لها اللغة، لأنها لا تنحصر فى الحقيقة، ولا يقال إنها المرادة هنا ، لنبوّها عن نظائرهما من آيات الوعيد . والله أعلم . وقوله تعالى :

(١) [٥٥ / الرحمن / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (إِنَّهُمْ أَفْوَاءٌ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ)

[٧٠] (فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ)

«إِنَّهُمْ أَفْوَاءٌ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ» تعليل الاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال. و(الإهراع) الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على آثارهم . وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير نظر وبحث ، بل مجرد تقليد وترك اتباع دليل . قال الرازي : ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد ، لكانت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ)

[٧٢] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ)

«وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ» أي أنبياء

حذروهم العواقب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ)

«فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ» أي الذين أُنذروا وخوفوا . فقد أهلكوا جميعاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

«إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» أي الذين أخلصوا دينهم لله . أو الذين أخلصهم تعالى لدينه . على القراءتين . أي فإنه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم . ثم أشار تعالى إلى أنبيائهم ، تثبيتاً لفؤاده صلوات الله عليه ، وتبشيراً لأتباعه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

[٧٦] (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

[٧٧] (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)

« وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا » أى بقوله ^(١) (رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَّارًا) « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » أى نحن بهلاك قومه . لأنه لا يجيب المضطر غيره « وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » أى من الفرق والطوفان . والمراد بأهله ، من آمن معه « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » أى فى الأرض بعد هلاك قومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

[٧٩] (سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَلَمِينَ)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » أى أبقينا عليه فى الأمم بعده ثناء حسنا ، ففعل (تركنا) محذوف ، أو ما حكاه تعالى بقوله « سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَلَمِينَ » أى أن يسلموا عليه إلى يوم القيامة . أى أن يقولوا هذه الجملة . قال السمين : قوله (سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ) مبتدأ وخبر . وفيه أوجه : أحدها أنه مفسر لـ (تركنا) والثانى أنه مفسر لفعله . أى تركنا عليه شيئاً وهو هذا الكلام . أو ثم قول مقدر . أى فقلنا سلام . أو ضمن (تركنا) معنى (قلنا) أو سلط (تركنا) على ما بعده . وقرئ (سلاما) وهو مفعول به لـ (تركنا) .

(١) [٧١ / نوح / ٢٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

« إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » تعليل لما أئيب به من التكرمة ، بأنه مجازاة له على إحسانه ، وهو مجاهدته في إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى الحق ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ » أي المصدقين . وتعليل إحسانه بالإيمان ، إظهار لفضل الإيمان ومزيته . حيث مدح من هو من كبار الرسل به . فالمتصود بالصفة مدحها نفسها ، لا مدح موصوفها . وذلك لأن الإيمان أساس لكل خير يوجد ، ومركز لدائرته ، ومسك خاتمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ)

« ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ » أي من كفار قومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ » أي ممن شايعه وتابعه في الإيمان والدعوة القوية إلى التوحيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِذْ جَاءَ رَبُّهُ وَبِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« إِذْ جَاءَ رَبُّهُ وَبِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أي أقبل إلى توحيدهِ بقلب خالص من الشوائب ،

باق على الفطرة ، سليم عن النقائص والآفات ، محافظ على عهد التوحيد الفطرى ، منكر على من غير وبدل .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٨٥] (إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ » أى من دون الله .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٨٦] (أَيْفُكَا ءِإِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)

« أَيْفُكَا ءِإِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ » أى أتريدون بطريق الكذب ، آلهة دون الله ؟

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٨٧] (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى بمن هو الحقيق بالعبادة ، لكونه رباً للعالمين ، حتى تركتم عبادته وأشركتم به غيره . والمعنى : لا يقدر فى وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته . لأن استحقاقه للعبادة أظهر من أن يختلج عرق شبهة فيه . فأنكر ظنهم السكائن فى بيان استحقاقه للعبادة . وهو الذى حملهم على عبادة غيره . أو المعنى : فما ظنكم به ؟ ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره ؟ وعلى كلِّ ، فلا استفهام إنكارى . والمراد من إنكار الظن إنكار ما يقتضيه .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)

« فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ » أى ليريههم على أنه يستدل بها على شيء لأنهم كانوا

منجمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)

« فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ » أى مريض لا يمكننى الخروج معكم إلى معيبدكم . ترخص عليه السلام بذلك ، ليتخلص من شهود زورهم ومنكراتهم وأفانين شر كههم ، مما تجوزة المصلحة . أو عني أنه سقيم القلب ، تشبيهاً لغمه وحزنه بالمرض ، على طريق التشبيه . أو أراد أنه مستعد للموت استعداد المريض . فهو استعارة أو مجاز مرسل .

قال الزخشرى : والذي قاله إبراهيم عليه السلام ، معراض من الكلام . ولقد نوى به أن من في عنقه الموت ، سقيم . ومنه المثل (كفى بالسلامة داء) وقول لبيد^(١) :
فدعوتُ ربِّي بالسلامة جهداً ليُصِحِّي ، فإذا السلامة داءً
ومات رجل فجأة ، فالتفت عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح . فقال أعرابيٌّ :
أصحيحٌ من الموت في عنقه ؟ انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : في الآية استعمال المعارض والمجاز للمصلحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ)

« فتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » أى إلى معيبدهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

« فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ » أى ذهب إليها في خفية « فَقَالَ » أى للأصنام استهزاء « أَلَا تَأْكُلُونَ » .

(١) رواه الهمداني في الكامل غير منسوب .

وقال في (رغبة الآمل ج ٣ ص ٣٥) : ينسب إلى عبد الرحمن بن سويد المرثي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ)

[٩٣] (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

[٩٤] (فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ)

[٩٥] (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)

[٩٦] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

« مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ » أى بإيجاب ولا سلب « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ » أى هجم عليهم « ضَرْبًا بِالْيَمِينِ » أى التى هى أقوى الباطشتين ، فكسرها . « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ » أى إلى إبراهيم بعد ما رجعوا « يَزْفُونَ » أى يسرعون لمعاتبته على ما صدر منه . فأخذ عليه السلام يبرهن لهم على فساد عبادتهم « قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ » أى من الأصنام « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » أى وما تعملونه من الأصنام المنوعة الأشكال ، المختلفة المقادير . ولما قامت عليهم الحجة ، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قَالُوا أَبْنُوا لَهُمْ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)

[٩٨] (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)

« قَالُوا أَبْنُوا لَهُمْ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا » أى لإحراقه « بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا » جعل النار عليه بردا وسلاما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ)

« وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي » أى مهاجر إلى بلد أعبد فيه ربي ، وأعصم فيه ديني .

قال الرازى : فيه دليل على أن الموضع الذى تكثر فيه الأعداء ، تجب مهاجرته . وذلك لأن إبراهيم عليه السلام ، مع ما خصه تعالى به من أعظم أنواع النصره ، لما أحسن من قومه العداوة الشديدة ، هاجر . فلأن يجب على غيره ، بالأولى . وقوله « سَيَهْدِينِ » أى إلى ما فيه صلاح ديني ، أو إلى مقصدى . وإنما بتّ القول لسبق وعده تعالى . إذ تكفل بهدايته . أولأن من كان مع الله كان الله معه ^(١) (احفظ الله يحفظك) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)

[١٠١] (فَبَشِّرْهُ نَبَأَهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

« رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » أى ولدا صالحا يعيننى على الدعوة والطاعة « فَبَشِّرْهُ نَبَأَهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » أى متسع الصدر حسن الصبر والإغضاء فى كل أمر . والحلم رأس الصلاح وأصل الفضائل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ، قَالَ يَا بَتِ أِفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ

مِنَ الصَّابِرِينَ)

« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ » أى السنّ الذى يقدر فيه على السعى والعمل « قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ » أى : إني أمرت فى المنام بذبحك . ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة - فانظر هل تصبر على إمضائى أمر الرؤيا والعمل بظاهاها؟

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٥٩ - باب حدثنا بشر بن هلال .

« قَالَ يَا بَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ » ، أى بأمرك الله . فإن كان ذلك أمراً من لدنه فأمضه . قال القاضى : ولعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به . أو علم أن رؤيا الأنبياء حق ، وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر ، ثم قال : ولعل الأمر فى المنام دون اليقظة ، لتكون مبادرتهم إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص . انتهى .

قال الرازى : الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب ، أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله ، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم ، حيث يراه قد بلغ فى الحلم إلى هذا الحد العظيم ، وفى الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية . ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة ، والثناء الحسن فى الدنيا . وقوله « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » أى على الذبح ، أو على قضاء الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)

« فَلَمَّا أَسْلَمَا » أى استسلما وانقادا لأمره تعالى بدون إبطاء ، واستل إبراهيم السكين ، « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » أى صرعه على شقه ، فوق جبينه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة . و (تله) أصل معناه : رماه على التل ، وهو التراب المجتمع . ك (تربه) . ثم عم لكل صرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ)

[١٠٥] (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

« وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا » أى لا تذبحه وقدقت بمصداقها فى بذل الوسع من الأخذ بإمضاء ماتشير إليه وكال الطاعة فى هذا الشاق ، وأوتيت أجر الامتثال والصبر والثبات . وفى جواب (لما) ثلاثة أوجه ، أظهرها أنه محذوف . أى نادته الملائكة .

أو ظهر صبرها . أو أجزلنا لها أجرها . الثاني في أنه (وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) زيادة (الواو) وهو رأى الكوفيين والأخفش . الثالث أنه (وَنَدَيْتَهُ) والواو زائدة أيضا . « إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أى باللطف والعناية والنداء والوحي والفرج بعد الشدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (إِن هَذَا لَهُوَ الْبَدَأُ الْمُبِينُ)

« إِن هَذَا لَهُوَ الْبَدَأُ الْمُبِينُ » أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلص من غيره . إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاء وامتحاناً لإبراهيم فى صدق الخلة لله ، وتضحية أعز عزيز لديه ، وأحب محبوب عنده ، لأمر ربه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ)

« وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ » أى رزقناه ما يذبح بدلاً عنه وفداء له ، منة وتطولاً . وقد روى أنه عليه السلام لما نودى ، حانت منه التفاتة إلى ما حوله ، فأبصر كبشاً قد انتشب قرناه فى شجرة . فتم به المرئى فى المنام المقصود به القربان لله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

[١٠٩] (سَلَّمَ عَلَيْنَا إِبراهيمَ)

[١١٠] (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١١١] (إِنَّهُ وَمِنَ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

[١١٢] (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ)

[١١٣] (وَبَرَّ كُنَّا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ اسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ) « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » أى مثل ما تركنا على نوح . كما تقدم بيانه وإعراجه « كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ وَمِنَ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَرَّ كُنَّا عَلَيْهِ » أى على إبراهيم « وَعَلَىٰ اسْحَقَ » أى : بتكثير الذرية وتسلسل النبوة فيهم ، وجعلهم ملوكا ، وإيتائهم مالم يؤت أحد « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ » أى فى عمله « وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ » أى بالكفر والمعاصى « مُبِينٌ » أى ظاهر الظلم .

تنبيهات :

الأول - يروى المفسرون ههنا فى قصة الذبح روايات منكرة لم يصح سندها ولا متنها . بل ولم تحسن ، فهى معضلة تنهى إلى السدى وكذب . والسدى حاله معلوم فى ضعف مروياته . وكذلك كذب .

قال ابن كثير رحمه الله : لما أسلم كعب الأخبار فى الدولة العمرية ، جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كتبه قديماً : فربما استمع له عمر . فترخص الناس فى استماع ما عنده عنه ، غشياً وسميناً . وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده . انتهى .

ولقد صدق رحمه الله . ولذا لا نرى الزيد على أصل ما قص فى التنزيل من الضرورى له ، إلا إذا صح سنده ، أو اطمأن القلب به . وقد ولع الخطباء فى دواوينهم برواية هذه القصة فى خطبة الأضحى من طرقها الواهية عند المحدثين . ويرونها ضربة لازب على ضعف سندها وكون متنها منكر أيضاً أو موضوعاً . ولما صنفت مجموعة الخطب حذفت هذه الرواية من خطبة الأضحى ككل مروى ضعيف فى فضائل المشهور والأوقات ، واقتصرت على جيات الأخبار والآثار . وذلك من فضل الله علينا فلا نحصى ثناء عليه . وأمثلة ما روى فى هذا النبأ من

الآثار ما أخرجه الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما موقوفاً، قال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك، عرض له الشيطان عند السعى . فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى جرة العقبة . فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب . ثم عرض له عند الجرة الوسطى فرماه بسبع حصيات . ثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل عليه السلام قميص أبيض . فقال له : يا أبت ! إنه ليس لى ثوب تكفنى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنى فيه : فمالجه ليخلصه ، فنودى من خلفه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش .

الثانى - قال السيوطى فى (الإكمال) : فى هذه الآية أن رؤيا الأنبياء وحى ، وجواز نسخ الفعل قبل التمكن ، وتقديم المشيئة فى كل قول . واستدل بمضمم بهذه القصة على أن من نذر ذبح ولده ، لزمه ذبح شاة .

ثم قال السيوطى : فسر الذبح العظيم فى الأحاديث والآثار بكبش . فاستدل به المالكية على أن الغنم فى التضحية أفضل من الإبل . انتهى .

الثالث - استدل بالآية على أنه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه - كما ذكره الرازى - وذلك فى باب الابتلاء . أى ابتلاء المأمور فى إخلاصه وصدقه ، فيما يشق على النفس تحمله .

الرابع - يذكر كثير الخلاف فى الذبيح . قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : وإسماعيل هو الذبيح على القول بالصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم . فإن فيه إن الله أمر

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٧٠٧ (طبعة المعارف) .

إبراهيم أن يذبح ابنه (بكره) . وفي لفظ (وحيد) ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده . والذي غرّ وأصحاب هذا القول إن في التواراة التي بأيديهم (اذبح ابنك إسحاق) قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم . لأنهم تناقض قوله (بكر) (وحيدك) ولكن يهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقه إليهم ، ويختارونه دون العرب . ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله . وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحاق ، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى^(١) (لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَأَمْرًا نُهَوِّ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) فحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبجه . ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة . فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ الواحد . وهذا ظاهر الكلام وسياقه . فإن قيل ، لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجرورا عطفا على إسحاق ، فكانت القراءة (ومن وراء إسحاق يعقوب) أى ويعقوب من وراء إسحاق . قيل لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به . لأن البشارة قول مخصوص : وهى أول خبر سارّ صادق . وقوله (ومن وراء إسحاق يعقوب) جملة متضمنة بهذه القيود ، فيكون بشارة بل حقيقة البشارة هى الجملة الخبرية . أو لما كانت البشارة قولاً ، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول . كأن المعنى : وقلنا لها من وراء إسحاق يعقوب والقائل إذا قال : بشرت فلاناً بقدوم أخيه ، وثقله فى أثره ، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً . هذا مما لا يسترىب ذوفهم فيه البتة . ثم يضعف الجر أمر آخر . وهو ضعف قولك (مرت يزيد ومن بعده عمرو) لأن العاطف يقوم بحرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور: كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور، ويدل عليه أنه سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه فى هذه السورة، قال^(٢) (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا

(١) [١١ / هود / ٧١ و٧٠] . (١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣ - ١١١] .

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْأَمِينُ * وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ *
 وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ وَمِن
 عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) ثم قال (١) (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) فهذا بشارة من الله
 له، شكراً على صبره على ما أمر به. وهذا ظاهر جداً في أن الم بشر به غير الأول. بل هو كالنص
 فيه . فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته . أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد
 لأمر الله، جزاه الله على ذلك، بأن أعطاه النبوة . قيل : البشارة وقعت على المجموع، على ذاته
 ووجوده وأن يكون نبياً . ولهذا ينصب (نبياً) على الحال المقدر أى مقدرأ نبوته . فلا يمكن
 إخراج البشارة أن يقع على الأصل، ثم يخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة . هذا محال
 من الكلام . بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقعها على وجوده أولى وأحرى ، وأيضاً
 فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر . كما جعل السعى بين الصفا
 والمروة ورمى الجمار ، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامةً لذكر الله . ومعلوم أن إسماعيل
 وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحق وأمه . ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام
 الذى اشترك في بنيائه إبراهيم وإسماعيل . وكان النحر بمكة ، من تمام حج البيت الذى كان على
 يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً . ولو كان الذبح بالشام ، كما يزعم أهل الكتاب ومن
 تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة . وأيضاً فإن الله سبحانه سعى الذبيح حليماً
 لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه . ولما ذكر إسحق سماه عليها فقال (٢) (هَلْ أَتَاكَ
 حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُّكْرَمُونَ)
 إلى أن قال (٣) (قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ) وهذا إسحق بلا ريب ، لأنه من
 امرأته وهى المبشرة به . وأما إسماعيل فمن السرية . وأيضاً فإنهما بشرا به على الكبر واليأس

(١) [٣٧ / الصافات / ١١٢] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٢٤ و ٢٥] .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٢٨] .

من الولد . وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك ، وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده . وإبراهيم لما سأل ربه الولد ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بحبته ، والله تعالى قد أخذ خليلاً . والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها . فلما أخذ الولد شعبةً من قلب الوالد ، جاءت غيره الخلة تنزعها من قلب الخليل . فأمره الخليل بذبح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه ، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة . إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه . فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر ، وفدى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب . ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار ، إنما حصل عند أول مولود . ولم يكن ليحصل في المولود الآخرون الأول . بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ، ما يقتضى الأمر بذبحه . وهذا في غاية الظهور . وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة . فإنها كانت جارية . فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة . فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة ، ليرد عن سارة حرارة الغيرة . وهذا من رحمته ورأفته . فكيف يأمره سبحانه بعد هذا ، أن يذبح ابنها ، ويدع ابن الجارية بحاله هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وخيرته لها . فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ؟ بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، حينئذ يرق قلب الست على ولدها ، وتبديل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيتاً ، هذه وابنها منهم . ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم ، إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت إليه ، من جعل آثارها وموطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة . وهذا سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذلك

وانكساره . قال تعالى ^(١) (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْمَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْمَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) ^(٢) (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : واستدل بقوله تعالى بعد ^(٣) (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ) من قال إن الذبيح إسماعيل . وهو الذي رجحه جماعة . واحتجوا له بأدلة . منها وصفه بالحلم وذكر البشارة بإسحق بعده . والبشارة بيعقوب من وراء إسحق . وغير ذلك . وهي أمور ظنية لا قطعية . ثم قال : وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقرب منه - ولم أر من سبقني إلى استنباطه - وهو أن البشارة وقعت مرتين . مرة في قوله ^(٤) (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) فهذه الآية قاطعة في أن هذا البشر به هو الذبيح . ومرة في قوله ^(٥) (وَأَمْرَأَتُهُ قَاسِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) الآية . فقد صرح فيها أن البشر به إسحق . ولم يكن بسؤال من إبراهيم . بل قالت امرأته إنها عجوز ، وإنه شيخ . وكان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو في آخر أمره . أما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام ، حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله . فعلما بذلك أنهما بشارتان في وقتين ، بغلامين . أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحق صريحا . والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره . فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح . انتهى .

(١) [٢٨ / القصص / ٥] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢١] . (٣) [٣٧ / الصفات / ١١٢] .

(٤) [٣٧ / الصفات / ٩٩-١٠٢] . (٥) [١١ / هود / ٧١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

« وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ » أى بالنبوة والرسالة ، والاصطفاء على عالمي زمانهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ)

« وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ » وهو قهر فرعون لهم ، بذبح الأولاد ونهاية الاستعباد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْبَاهُ الْفَالِغِينَ)

« وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْبَاهُ الْفَالِغِينَ » أى مع ضعفهم وقوة فرعون وقومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَأَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

« وَأَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ » أى البليغ في بيانه للأحكام والتشريعات ، والآداب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

« وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » أى في باب الاعتقاد والمعاملات الموصل رعايته والسلوك عليه ، إلى السعادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرِينَ

[١٢٠] (سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ

[١٢١] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

[١٢٢] (إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

[١٢٣] (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » وهو من أنبياء بني إسرائيل من بعد زمن سليمان . أرسله الله لما انتشرت الوثنية في الإسرائيليين ، وساعد على انتشارها بينهم ملوكهم ، وبنوا لها المذابح وعبدوها من دون الله تعالى ، ونبذوا أحكام التوراة ظهريا . فقام إلياس عليه السلام يوجههم على ضلالهم ويدعوهم إلى التوحيد ، ويسمى في التوراة (إيليا) وله نبأ فيها كبير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ

« إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ » أي عذاب الله ونقمته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ

« أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أي تعبدونه أو تطلبون الخير منه ؟ وهو صنم من أصنام الفئقيين ، أقاموا له ولغيره من الأوثان معابد ومذابح وكهنة ، يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والأعياد الحافلة . ويقدمون لهم ضحايا بشرية « وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » أي تتركون عبادته . قال القاضي : وقد أشار فيه إلى المقتضى للإنكار، المعنى بالهمزة . ثم صرح به بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ)

[١٢٧] (فَكَذَّبُوهُ فَأَنهَمُ لَمُحْضَرُونَ)

« اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنهَمُ لَمُحْضَرُونَ » أي

في المذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

[١٢٩] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

[١٣٠] (سَلَّمَ عَلَى آلِ يَأْسِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » أي الذين آمنوا به واتبعوه « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ *

سَلَّمَ عَلَى آلِ يَأْسِينَ » بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بـ (ياسين) . وقرئ آل ياسين

بإضافة آل (بمعنى أهل) إليه . وكله من التصرف في العلم الأصلي ، الذي هو (إيليا) على

قاعدة العرب في الأعلام المعجمية ، إذا أرادت أن تلتطفها في الاستعمال ، وتخففها على

الأسنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١٣٢] (إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

[١٣٣] (وَإِنْ لُوَطَّا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[١٣٤] (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ)

« إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ وَمِنْ عَبْدَانَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى للدعاء إلى الله والنهى عن الفواحش « إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ » أى من عذاب قومه المنذرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)

« إِلَّا عَجُوزًا » وهى امرأته ، فإنها وإن خرجت عن مكان عذابهم ، كانت « فِي الْغَابِرِينَ » أى فى حكم الباقين فى العذاب ، لكونها على دين قومها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ)

« ثُمَّ دَمَرْنَا » أى أهلكنا « الْأَخْرِينَ » بجمل قريتهم عاليها سافلها ، وإمطار حجارة من سجيل عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُُونَ عَلَيْهِمْ مُمْسِكِينَ)

[١٣٨] (وَبِالْأَيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[١٣٩] (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« وَإِنَّكُمْ » أى يا أهل مكة « لَتَمْرُُونَ عَلَيْهِمْ مُمْسِكِينَ * وَبِالْأَيْلِ » أى فترون دائماً علامات مؤاخذتهم « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى إلى أهل نينوى للتوحيد ، والزجر عن ارتكاب المآثم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

« إِذْ أَبَقَ » أى : بغير إذن ربه عن قومه المرسل إليهم « إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »

أى السفينة المملوءة ، ليركب منها إلى بلد آخر . روى أنه نزل من يافا وركب الفلك إلى ترسيس . فهبت ريح شديدة كادت تفرقهم . فاقترعوا ليعلموا بسبب من ، أصابهم هذا البلاء . فوقعت على يونس . فألقوه في البحر . وهو معنى قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ)

« فَسَاهَمَ » أى قارع « فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أى المغلوبين بالقرعة . وأصله الزلق عن الظفر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (فَالْتَمَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« فَالْتَمَمَهُ الْحُوتُ » أى ابتلمه « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من السفر بغير أمر به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (فَلَوْلَا أَنَّهُ وَكَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)

« فَلَوْلَا أَنَّهُ وَكَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى الذاكرين الله بالتسبيح والإنابة والتوبة ، فى بطن الحوت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى لكان بطنه قبراً له إلى يوم القيامة . أى لكان رحمناه بتسبيحه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)

« فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ » أى حملنا الحوت على طرحه باليبس من الشط « وَهُوَ سَقِيمٌ »
أى مما ناله من هذا الحبس الذى يأخذ بالحقاق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ)

« وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ » أى لتقيه من الذباب والشمس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)

« وَأَرْسَلْنَاهُ » أى بعد ذلك ، بأن أمرناه ثانية بالذهاب « إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ »
وهم قومه المرسل إليهم ، الذين أبق عن الذهاب إليهم أولاً . و (أو) للإضراب .
أو بمعنى الواو أو للشك بالنسبة إلى مرأى الناظر . أى إذا رآها الرأى قال : هى مائة ألف
أو أكثر . والغرض الوصف بالكثرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (فَأَمَّنُوا فَمْتَغَنَّهُمْ إِلَى حِينٍ)

« فَأَمَّنُوا » أى فسار إليهم ودعاهم إلى الله ، وأنذرهم عذابه إن لم يرجعوا عن الكفر
والغى والضلال والفساد والإفساد . فأشفقوا من إنذاره واستكانوا لدعوته وآمنوا معه
« فَمْتَغَنَّهُمْ إِلَى حِينٍ » أى حين انقضاء آجالهم بالعيش الهنىء والمقام الأمين ، ببركة الإيمان
والعمل الصالح . وإنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص من قوله (وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ) إلخ اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)

« فَاسْتَفْتِهِمْ » أى قريشاً المنذرين بأبناء الرسل وقومهم « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ » أى سلمهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها . جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم (الملائكة بنات الله) مع كراهتهم الشديدة لهن ، ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)

« أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ » أى حاضرُونَ ، حتى فاهوا بتلك العظيمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ)

[١٥٢] (وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ » أى صدر منه الولد . مع أن الولادة من خواص الأجسام القابلة للفساد « وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى مقاتلهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ)

« أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » أى اختار الإناث « عَلَى الْبَنِينَ » أى الذكور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

« مَا لَكُمْ » أى : أى شىء عرض لعقولكم « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » بنسبة الناقص إلى المقام الأعلى ، وتخييركم الكامل .

لطيفة :

قال الزمخشري : قال قلت : (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ) بفتح الهمزة، استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد ، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات ؟ قلت : جملة من كلام الكفرة، بدلا عن قولهم (وَلَدَ اللَّهُ) وقد قرأها حمزة والأعمش رضی الله عنهما. وهذه القراءة، وإن كان هذا حملها، فهي ضعيفة. والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبها . وذلك قوله (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) و (مَالِكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فن جعلها للإثبات ، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى أنه منزه عن ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ)

« أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ » أى حجة واضحة وبرهان قاطع . ثم لا يجوز أن يكون ذلك عقليا ، لاستحالة عند العقل . فغايته أن يكون مأثورا عن أسفار مقدسة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ » أى المسطور فيه ذلك عن وحى سماوى « إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى دعواكم . وهذا كقوله تعالى (١) (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ) وفيه إشعار بأن المدار فى الدعوى على البرهان البين . وأنها بدونها لا يقيم لها وزن .

(١) [٣٠ / الروم / ٣٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا ، وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ أَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

« وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا » أى قربا منه . قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله تعالى . فقال أبو بكر رضى الله عنه : فَمَنْ أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سروات الجن . وكذا قال قتادة وابن زيد . ثم أشار إلى أن لانسبة تقتضى النسب بوجه ما . عدا عن استحالة ذلك عقلا ، بقوله « وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ » أى المنسوب إليهم هذا النسب « إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » أى فى النار يوم القيامة . لكون الجنة كالجن ، علم فى الأغلب للفرقة الفاسقة عن أمر ربها من عالم الشياطين . أى : فالنسوب إليهم يتبرؤون من هذه النسبة ، لما يعلمون من أنفسهم أنهم من أهل السعير ، لامن عالم الأرواح الطاهرة ، فإبال هؤلاء المشركين يهرفون بما لا يعرفون ؟ وفسر بعضهم (الجنة) بالملائكة الحدت عنها قبل . والضمير فى (إنهم) للكفرة . ولعل ما ذكرناه أولى ، لخلوه عن تشبث الضمائر ، ولموافقه للأغلب من استعمال الجن والجنة . وذلك فيما عدا الملائكة . وقلنا (الأغلب) لما سمع من إطلاق الجن فى الملائكة . قال الأعشى ^(١) يذكر سليمان عليه السلام :

وسخر من جن الملائك تسعة قياما لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ مَحَارِبًا

وقال الراغب : الجن يقال على وجهين : أحدهما للروحانيين المستتره عن الحواس كلها ، بإزاء الإنس . فعلى هذا تدخل فيه الملائكة . وقيل : بل الجن بعض الروحانيين . وذلك أن الروحانيين ثلاثة : أخيار وهم الملائكة . وأشرار وهم الشياطين . وأوساط فيهم أخيار وأشرار ، وهم الجن ، ويدل على ذلك قوله تعالى ^(٢) (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ) إلى قوله تعالى ^(٣) (وَمِمَّا أُنْفِطِحُونَ) انتهى . ورد إطلاق الجن على الملائكة العلامة الفاسى فى شرحه على (القاموس) فقال : تفسير الجن بالملائكة مردود . إذ خلق الملائكة من نور لامن نار كالجن . والملائكة معصومون . ولا يتناسلون ولا يتصفون بذكورة وأنوثة ، بخلاف

(١) أنشده فى اللسان (مجلد ١٣ ص ٩٧ ، طبعة بيروت) هكذا ... يعملون بلا أجر .

(٢) [٧٢ / الجن / ١] . (٣) [٧٢ / الجن / ١٤] .

الجن . ولهذا قال الجماهير : الاستثناء في قوله تعالى ^(١) (إِلَّا إِبْلِيسَ) منقطع أو متصل . لكونه كان مغموراً فيهم ، متخلفاً بأخلاقهم . انتهى . وهو يؤيد ما ذهبنا إليه . وبيت الأعشى لا يصلح حجة ، لفساد مصداقه . لأن سليمان لم تسخر الملائكة لتشيد له المباني . وليس ذلك من عمائم عليهم السلام . وقد مر الكلام على ذلك في تفسير سورة (سبأ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (سُبْحٰنَ اللّٰهِ عَمَّا يُصِفُونَ)

« سُبْحٰنَ اللّٰهِ عَمَّا يُصِفُونَ » أى من الولد والنسب . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِلَّا عِبَادَ اللّٰهِ الْمُخْلِصِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ اللّٰهِ الْمُخْلِصِينَ » استثناء من (المحضرين) الذين هم الجنة ، متصل على القول الأول ، أى المؤمنين منهم . ومنقطع على الثانى . أو استثناء منقطع من (واو) يصفون . هذا ، وبق وجه فى الآية لم يذكره . وهو أن يراد بالنسب المناسبة والمساكلة فى العبادة . ويراد بالجنة الملائكة . ويكون المراد من الآية الإخبار عن عبد الملائكة من العرب وجعلوهم ندّاً ومثلاً له تعالى ، وحكاية لضلال آخر لهم ، غير ضلال دعواهم ، أنهم بنات الله سبحانه ، من عبادتهم لهم . مع أنهم عليهم السلام يعلمون أن هؤلاء الضالين محضون فى العذاب . والآية فى هذا كآية ^(٢) (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاتُهُمْ يَقُولُ لِلسَّمَلَاءِ أَهْوَلَاءُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَمْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَآئِمْنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) وكان السياق من هنا إلى آخر ، كالسياق فى طليعة السورة . كله فى تقرير عبودية الملائكة له تعالى ، وكونها من مخلوقاته الصافية لعبادته ، فأنى تستحق الربوبية ؟ والله أعلم . وقوله :

(٢) [٣٤ / سبأ / ٤١ و ٤٠] .

(١) [٢ / البقرة / ٣٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (فَأَنكُم مَّا تَعْبُدُونَ)

« فَأَنكُم مَّا تَعْبُدُونَ » عود إلى خطابهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتِنِينَ)

« مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتِنِينَ » أى مفسدين أحداً بالإغواء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ)

« إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ » أى ضالّ مثلكم ، مستوجب للنار ، قال ابن جرير^(١) : يقول تعالى ذكره : فإنكم أيها المشركون بالله (وَمَا تَعْبُدُونَ) من الآلهة والأوثان (مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتِنِينَ) أى ما أنتم على ما تعبدون من دون الله بمضلين أحداً ، (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ) أى من سبق في علمى أنه صال الجحيم . وقد قيل : إن معنى (عليه) به . انتهى . ثم بين تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية ، للرد على عبدتهم ، بقوله حاكياً عنهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (وَمَا مِنَّا إِلَاهٌ وَ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ)

« وَمَا مِنَّا إِلَاهٌ وَ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » أى فى العبودية وتسخيره فيما يريد تعالى منه . لا يتعدى فيه طوره ، ولا يجاوز منه قدره .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحامى الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ)

« وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ » أى فى أداء الطاعة ومنازل الخدمة التى تؤمر بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

« وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » أى المزهون الله عما يصفه به الملحدون . أو المصلون له خشوعاً لعظمته ، وتواضعاً لجلاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ)

« وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ » أى مشركو قريش .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ)

« لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ » أى كتاباً من الكتب التى نزلت عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ)

« لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ » أى لأخلصنا العبادة له . فجاءهم الذكر الذى هو سيد الأذكار ، والكتاب الذى هو أهدى الكتب والمعجز من بينها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَكَفَرُوا بِهِ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة كفرهم . وهذا كقوله تعالى (١)
 (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) الآية . وقوله تعالى (٢) (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ
 الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا
 أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى
 وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[١٧١] (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ » أى وعدنا لهم الأزلى ، وهو :

القول فى تاويل قوله تعالى :

[١٧٢] (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)

[١٧٣] (وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

« إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا » أى الرسل ومن آمن معهم « لَهُمُ
 الْغَالِبُونَ » أى الظاهرون على أعدائهم ، والمالكون لنواصيهم كقوله تعالى (٣) (كَتَبَ
 اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ جُنُودٌ لِمَنْ يَكْفُرُونَ ، بَلْ لِيَكُونَ
 اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْغَالِبَ) .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[١٧٤] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عنهم إعراض الصفوح الحليم عن يبال منه .

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٥٦ و١٥٧] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

كقوله تعالى^(١) (وَدَعَّ أَذْنَهُمْ) وقوله^(٢) (فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) « حَتَّىٰ حِينٍ »
أى إلى استقرار النصر لك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

« وَأَبْصِرْهُمْ » أى بصرهم وعرفهم عاقبة البغى والكفر ، وما نزل بمن أنذر قبلهم ،
أو أوضح لهم الدلائل والحجج فى مجاهدتك إياهم بالقرآن والوحى . فإن لم يبصروا الآن ،
« فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » أى ما قضينا لك من التأييد والنصرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

« أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى قبل حلول أجله ، وإنه لآت ، لأنه يوم الفتح الموعود به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » أى بقرتهم وفنائهم « فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ » أى فبئس
الصباح صباح من أنذرتهم بالرسول فلم يؤمنوا . لأنه يوم هلاكهم ودمارهم . قال الزمخشري :
مثل العذاب النازل بهم ، بعد ما أنذروه فأنكروه ، بجيش أنذر بهجومه بعضُ ناصحهم . فلم
يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبروا أمرهم تديراً ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بغتة
فشن عليهم الغارة ، وقطع دابرهم . وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا . فسميت الغارة
(صباحا) وإن وقعت فى وقت آخر . وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التى تحس
بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك ، إلا لحيثها على طريقة التمثيل . انتهى . أى فهى استعارة
تمثيلية . أو فى الضمير استعارة مكنية ، والنزول تحييلية .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [١٥ / الحجر / ٨٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

[١٧٩] (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

« وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » قال الزمخشري : إنما نفي ذلك ليسكون تسليية على تسليية ، وتأكيذاً لوقوع الميعاد إلى تأكيد . وفيه فائدة زائدة . وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالفعل . وإنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به من الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة . وقيل : أريد بأحدها عذاب الدنيا ، وبالآخر عذاب الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ » أى المنعة والقدرة والغلبة « عَمَّا يَصِفُونَ » أى من الشريك والولد ونحوهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)

« وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى سلام وأمان وتحيية على المرسلين المبلغين رسالات ربهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على نعمه ، التى أجلها إرسال الرسل لإظهار أسمائه الحسنى وشرائه العليا ، وإصلاح الأولى والأخرى .

فوائد في خواتم هذه السورة

الأولى - روى ابن جرير عن الوليد بن عبد الله قال : كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) فصفوا . وقال أبو نضرة : كان عمر رضى الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استقيموا قياما ، يريد الله بكم هدى الملائكة . ثم يقول (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) تأخر يافلان ، تقدم يافلان . ثم يتقدم فيكبر . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير (١) .

وفي صحيح مسلم (٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا الأرض مسجداً . وتربها لنا طهوراً .

الثانية - روى الشيخان (٢) عن أنس رضى الله عنه قال : صبَّح رسول الله ﷺ خير . فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيمهم ورأوا الجيش ، رجعوا وهم يقولون : محمد والله ! محمد والخميس . فقال النبي ﷺ : الله أكبر خربت خير (إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) . دلَّ تمثله ﷺ بالآية على شمولها لعذاب الدنيا ، أولاً وبالذات .

الثالثة - قال ابن كثير : لما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص ، بدلالة المطابقة . ويستلزم إثبات السكال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات السكال المطلق مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي مواضع كثيرة من القرآن . ولهذا قال تبارك وتعالى « سُبْحَانَ رَبِّكَ » الآيات .

- (١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
- (٢) أخرجه في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٤ (طبعتنا)
- (٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٦ - باب ما يحقن بالأذان من الدماء ،

حديث ٢٤٦

وأخرجه مسلم في : ١٦ - كتاب النكاح حديث رقم ٨٧ (طبعتنا)

الرابعة - روى ابن أبي حاتم عن الشعبيّ مرسلًا : من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه، حين يريد أن يقوم : (سُبْحَانَ رَبِّكَ) الآيات .
وروى أيضاً عن عليّ موقوفاً .
وأخرج الطبرانيّ عن زيد بن أرقم مرفوعاً : من قال دبر كل صلاة (سُبْحَانَ رَبِّكَ) الآيات ، ثلاث مرات ، فقد أكتال بالجريب الأوفى من الأجر .
وقد بينّ الرازيّ أنّ خاتمة هذه السورة الشريفة جامعة لكل المطالب العالية .
فارجع إليه .